أعرابي في المدينة

الأعرابي والشعر الحديث

للأستاذ علي الطنطاوي

أتاني منذ يومين (صلّبي)، فقال لي:

هل أنت من المَعْنِيين بالشعر والأدب؟

قلت: نعم، فماذا عندك؟

قال: نعمة ساقها الله إليك، إن أنت أضعتها يوشك ألاّ تلقى مثلها يَدَ الدّهر

قلت: فاذكر لي ما هي، فإني أرجو ألاّ أضيعها

قال: أتعرف (السوالم)؟

قلت: نعم، جمع تكسير ...

قال: لا والله ما هم بجمع تكسير، إنهم أكرم من ذاك، هم والله جمع مبارك

قلت: إنما أردت الكلمة ...

قال: كلمة ماذا؟ إنها قبيلة كانت متوارية في رملة من رمال (عالج) لا يدرى بها أحد ولم يكشفها إلا حكم الإمام عبد العزيز أطال الله عمره، فعرفها العرب وعرفوا فيها العربية البرأة من العجمة، والبلاغة التي ما وراءها بلاغة، والنبرة الصافية التي إن سمعتها فإنما سمعت كلام سحبان، أو خالد بن صفوان ...

قلت: ولكن ما أبعدك يا رملة عالج!

قال: بل ما أدناك يا شارع الحلبوني، ألا تعرف دار الباشا؟

قلت: القنصلية السعودية؟

قال: بارك الله فيك. إن شيخ السوالم نازل فيها وقد هبط دمشق ليلة دمشق، وهو أول (سالمي) يهبطها بعد إذ فارقتها قبيلته

قلت: متى فارقوها؟

قال: صبيحة الفتنة التي قتل فيها الوليد بن يزيد، الملك الظلوم الذي عبث خصومه بتاريخه، فقوّلوه ما لم يقل، ونسبوا إليه ما لم يفعل، وروى هذا العبث مؤرخون هواهم عليه وميلهم مع أعدائه ... وأدباء معاصرون لا يبالون ما يروون

قلت: إنك لتذكر تاريخاً قديماً!...

قال: هو ما قلت لك. غير أن (الشيخ) لا يحب أن يلق أحداً، وقد حذروه مما يقال لهم أهل الصحف، يفضحون الناس ويشرون من أسرارهم ما يطوون، ويعلنون من أخبارهم ما يسرّون، ليسألوا بذلك من يشتري منهم هذه الصحائف، فاحتل للقائه بحيلة ...

قلت: وأنى لي الحيلة؟

قال: سمعت أن ها هنا عالماً جليل القدر يقال له الشيخ بهجة البيطار، لو أقسم على (الإمام) لأبرّه، ولو قال لسمع منه، وما كان الباشا ليرد له طلباً، وإننا إن قصدناه أوصلنا إلى (الشيخ). أفلك به معرفة؟

قلت: لي به معرفة؟ أقول لك هو أستاذنا وصديقنا ثم إننا إذا لم نلقه سرت بك إلى مَن مكانته عند (الإمام) مثل مكانته أو أعلى، الزعيم العالم المصلح الشيخ كامل القصاب رئيس علماء دمشق، ومدير معهدها العلمي

قال: إنه رئيسكم الذي ...

— فقاطعته وأنا أقول: رئيسنا، ولكني لست من العلماء!

قال: ولم؟ أو أنت إذن من الجهلاء؟

قلت: إن علماءنا (يا صلّبي) لا يقبلون فيهم من كان مثلي، مخلوع العذار، محفوف اللحية والشاربين، يمشي في الطرقات حاسراً، ولا يرون الرجل عالماً إلا إذا اتخذ عمّة طولها ثلاثون ذراعاً، ولحية لا تقصر عن مدّ قبضة، واتخذ جبة تسَع معه اثنين آخرين، ويُصنع من كمها وحده جبة ثانية ...

— فضحك صلبي وقال: ولكن هذه الكتب ما ألّفتها الأكمام ولا العمائم، وهذا العلم ما جاءت به اللحى ... أفلا يعلم أصحابك هؤلاء أن العلم دماغ وقلم ولسان؟

* * *

وتفضل أستاذنا البيطار فسعى لنا بجاهه عند الباشا (القنصل) حتى جمعنا بـ (الشيخ) فإذا هو فوق ما وصف لنا، وإذا لسان مبين ولغة معربة وحديث كأنك تقرأ في البيان والتبيين أو في عيون الأخبار. ولقد خضنا معه كل بحر، وعرجنا على كل منزل، فسألته عن الشعر واستطلعت رأيه في جديده، وسأله أستاذنا عن مسائل من اللغة والنحو، وعرض عليه أشياء من تمحلات النحاة وغلاطاتهم، فأجاب بأسدّ جواب وأحكمه، فما كان أعجب من سؤال الأستاذ إلا جوابه، وما تقول فيهما إلا الأصمعي يشافه بلغاء الأعراب من أهل زمانه ...

وإني مثبت هنا طرفاً من حديثه في الشعر، بكلامي أنا، لا ببيانه هو، فما استطعت حفظ ما قال بحروفه. ولعلي راجع يوماً فراوٍ حديث النحو، أو لعل الأستاذ البيطار يرويه بنفسه ليعلم

القراء أننا نصف مجلساً قد كان حقاً ، لا تخيل ولا نبالغ . . .

* * *

قلت له : كيف أنت والشعر ؟

قال : أما ما قالت العرب فإني أرويه كله لا أحرم منه شيئاً ، وأما ما قال المحدثون بعد إذ فشا اللحن في الأمصار وعمت (فيما بلغنا) العجمة فلا أعرفه ، ولا أرضى لنفسي روايته ، لأن أصحابه أفسدوا على العرب ديوانهم ، وجاءوهم بما ينكرون من القول

قلت : ولكنك رجل عادل حصيف ، أفلا تسمع قول هؤلاء المحدثين قبل أن تحكم عليهم ؟

قال : بلى والله ، إني سامع فأنشدني

فنظرت فكأن الله محا الشعر كله من قلبي إلا أبياتاً لأبي تمام في وصف الربيع رويتها التلاميذ . فأنشدته إياها وفي ظني أنه لا يرضى عنها ، لأنها ليست مما ألف ، ولو أنشدته لغير أبي تمام أو أنشدته لأبي تمام غيرها ، لكان ذلك أدنى إلى رضاه ، ولكن ماذا أصنع وقد نسيت كل ما جاوزها من الشعر ؟ قلت :

مطر يذوب الصحو منه وبعده صحو يكاد من الغضارة يمطر
غيثان فالأنواء غيث ظاهر لك وجهه والصحو غيث مضمر

فرأيته قد طرب لها طرباً لم يخفه وصفق يداً ببدمن الإعجاب وتمايل فقلت وقد قويت نفسي : كيف سمعت ؟

قال : لقد أحسن وجاء بما لم يسبقه إليه سابق ، وما أحسبه يلحقه فيه فيدرك شأوه لاحق . لقد عرف الناس ثلجاً يذوب ، فأذاب لهم الصحو حتى سال ماء ، ثم عاد فجعل الصحو من طراوته كأنه يمطر ، فلم يخلهم في المطر من صحو ذائب ، ولا في الصحو من مطر . ثم أصّل وفرّع ، فجعل من الغيث ظاهراً ومضمراً ، وما يكون مضمر إلا وثمة ضمير ، ولا ضمير إلا في حيّ ، أفلا تراه كيف أسبغ الحياة على الجماد ؟

قلت : هذا مذهب في الشعر يعرفه أهل زماننا ويحسبون أنهم ابتكروه ... يعطيك صورة جميلة ولكنها ليست بينة الحدود ولا واضحة المعالم ، فأنت تستمتع فيها بكشف المجهول ، وهو لعمري أصل الآداب ، وأقوى الغرائز ، ثم تملأ فراغها بمواطفك وتجعل حدودها من أفكارك ، فتكون كأنك صنعتها لنفسك ، وتفهم منها ما لا يفهم سواك

قال : هذا شيء ما أعرفه ولكني لا أعيبه ، ولقد طربت لما سمعت منه ... قلت : أفلا أسمعك من شعر أهل زماننا ؟

قال متعجباً : وإن لأهل زماننكم لشعراً ؟

قلت : ولم لا يكون ؟ إسمع مقطوعة من حديث الشعر لشاعر اسمه فياض ، قالها على لسان المتنبي أكبر شعراء العرب كأنه يعلمه بها كيف يكون القول

قال : هذا لعمري النبوغ ، فماذا قال ؟ قلت : قال :

جسدي النازل من شهوته سلم العار وروحي السامية
يا لعمر مشيا فيه معا

فوثب كمن داس على جمرة ، أو لسعته عقرب ، فأمسك بفمي فسكت فزعاً وقلت : مالك ؟

قال : ما هذا ؟ قلت : شعر جديد !

قال : أعوذ بالله (جسدي النازل من شهوته) ؟ وهل كانت شهوته جبلاً عالي الذرى ، أو قصراً شامخ الدعائم حتى ينزل منها ؟ وإلى أين ينزل ؟ وهل بعد الشهوة منحدر ، أو دونها منزل ؟ وما (سلم العار) ؟ هل هو جسده ؟ فكيف صار سلماً ؟

قلت : لعله أراد أن جسده ينزل على سلم العار ، أي ينحط في درك العار بسبب شهوته التي ركبت فيه ، فما استقام له طريق القول ؟

قال : برئت من العربية إن كان هذا يفهم من كلامه ، إننا نعرف (ينزل فلان) إذا كان عالياً وهبط ، و (ينزل البلدَ) إذا سكنه ، و (ينزل بالقوم وعليهم) إذا حل فيهم ، و (ينزل من الجبل) إذا كان قد صعّد فيه ، و (ينزل إلى الوادي) ، و (ينزل على الدرج) ولا نعرف (نزل السلم) إلا إذا قام فيه ، كما يقيم المرء في المدينة ، ثم إن السلم يصعد عليه من يكون على الأرض ، فأين كان هذا حتى نزل على السلم ؟ هل ولدته أمه على المنارة فنشأ فيها ، ثم بدا له فنُصب له (سلّم العار) لينزل عليه ؟

قلت : أو لا تسمع سائر المقطوعة ؟ قال : لا والله

قلت : ولكنه ألقاها على ملأ من الأدباء والشعراء في سوق من أسواق الأدب في دمشق ، كان أقامها أديب من أدباء تنوخ اسمه عز الدين بن علم الدين ، فسمعوها وارتضوها وما رأينا فيهم من أنكرها عليه

قال الأستاذ البيطار : لقد كنت حاضر السوق وسمعتها ولكني لم أرتضها ولا ارتضاها صديقي أبو قيس

قال الشيخ : ومن أبو قيس ؟

قلت : هو التنوخي الذي حدثتك عنه ، وهذه كلها أسماؤه وله غيرها . قال : ما أكثر ماله من أسماء !

قلت : وما أكثر ما له من فضائل وحسنات ، وكثرة الأسماء دليل على شرف المسمى

قال: هذا صحيح ! قلت: أتحب أن أقرأ لك من شعر شوقى ؟
قال : أسمع اسماً منكراً !
قلت: نعم، ولكن له شعراً معروفاً. إنه الذى يقول فى الأزهر:

قم فى فم الدنيا وحىّ الأزهرا ... وانثر على سمع الزمان الجوهرا
واخشع ملياً واقض حق أئمة ... طلعوا به زهراً وماجوا أبحرا
كانوا أجلّ من الملوك جلالة ... وأعز سلطاناً وأفخم مظهرا

فاستوى جالساً ، وقال: لا جرم أنه شعر معروف ، هذا هو الشعر لا ما سككْت به سمعى آنفاً ، هذا هو الشعر . لقد أنطق أعظم ناطق وهو الدنيا ، وأسمع أجل سامع وهو الزمان ، وجعل مدح الأزهر جوهراً، وهذا لعمر الحق أكبر مما صنع امرؤ القيس حين وقف واستوقف ، وبكى واستبكى ... ثم وصف أئمته بخير ما يوصف به علماء ، سموٌّ كالنجم ونور كالنجم ، وهدى كهدى النجم ، وعلم كالبحر وهم بكثرتهم كماء البحر ، ولو شئت لكشفت عن خمسين معنى مستتراً وراء قوله (طلعوا به زهراً وماجوا أبحرا) زدنى من قوله ...

فمضيت فى القصيدة حتى بلغت قوله : (يا معهداً أفنى القرون جداره) فترنح طرباً ، وأعجبته سورة هذا الجدار ، وهو قائم فى وجه القرون كالصخرة المهولة ترتد عنه القرون كليلة عاجزة ، ثم تفنى وتضيع كما ترتد الأمواج عن الصخرة ثم تذهب وتضمحل والصخرة راسية ما ذهبت ولا اضمحلت

واستزادنى من شعره فأنشدته قوله وهو لم يبلغ العشرين :

صونى جمالك عنا إننا بشر ... من التراب وهذا الحسن روحانى
أو فابتغى فلكاً كونى به ملكاً ... لا تنصبى شركاً للعالم الفانى

فهزّه الطرب هزاً وقال : إن الشعراء يقولون ولكن مثل هذا ما يقولون . إنهم وصفوا حسن المرأة وجمالها ، ولكن لم يستطيعوا أن يرفعوها فوق الناس وأن يجعلوها من طينة غير طينتهم ، وأن يبرّئوها من مادة التراب حتى تخلص لصفاء الروح ثم يجعلوها ملَكاً يسكن السماء . إنى لأعجب لكم ! ... عندكم هذا الشاعر ولا تفاخرون به شعراء الأرض ؟

***

ثم قرأت عليه من شعر حافظ فأعجبه ولكنه قال :

هذا من عيار وذاك من عيار ، ولست أسوّى بينهما . إن الأول عبقرى إمام، وهذا مقلد ذو بصيرة، وسبّاق ذو وثبات.

قلت : إن الناس كانوا يسوّون بينهما أو يقاربون يوم كانا حيّين ، والأحياء مقاييس من صداقة أو عداوة ، ولهم صفات يحبون من أجلها أو يبغضون : كخفة الروح وبسطة الكف وحسن المجالسة . فلما ماتا ولم يبق إلا موازين الأدب بدأ الناس يدركون أن بينهما بوناً شاسعاً وأمداً بعيداً

ثم أسمعته لكثير من الأحياء فلم يعدل (بأحمد محرم) و (بشارة الخورى) أحداً وفضلهما على كل من ينظم اليوم شعراً ، وأعجبه غزل (رامى) ، وأنس بجزالة شعر (البارودى) وحسن ابتكار (صبرى) . وقرأت عليه من أشعار الشاميين ، فقدم (الزركلى) واستقلّ شعره وعجب من سكوته الآن ، لأن الشاعر عنده من ينظم أبداً لا ينقطع حتى ينقطع عن نفسه سيل العواطف ويجف منها معين الحسّ . ومن يقول مثل شعر الزركلى الوطنى الذى يسيل منه الدمع ، دمع القلب ، لا يمكن أن ينضب ينبوعه . وقد كره قصيدته (العذراء) ورأى فيها ضعفاً فى التأليف بيّناً . وأعجبته جزالة شعر (محمد البزم) ولكنه رأى ألفاظه أجزل من معانيه ومفرداته أمتن من جمله ، وأخذ عليه قوله :

إذا كان من أسدى لك الشر هيناً
فقل لى أبيت اللعن من أين تثأر

وقال إن العرب تقول أسدى إليه يداً ولا تنطق بها فى الشر ، أما قوله (أبيت اللعن) فإقحام لا معنى له ، لأنها كلمة كان يخاطب بها ملوك الجاهلية وقد بطلت ، فأى ملك من ملوك الجاهلية يخاطب ؟ وأخذ على (مردم) قوله فى نشيده :

سمـاء لعمرك أو كالسماء

ورآه سبكاً مقلوباً ، وكان ينبغى أن يقول هم كالسماء بل هم سماء ، وكره منه قوله فى مطلع النشيد :

حماة الديار عليكم سلام

وقال بأن تنكير السلام يجعله أشبه بلغة مستعربة الروم يعنى عمال الفنادق فى الإسكندرية، وأعجبه شعر (مردم) الوصفى التصويرى أما (الشعر الجديد) كشعر الرمزيين ، والمهاجرين ، فلم يفهم منه إلا بعض مفردات من ألفاظه ولم يعدده شعراً ولا كلاماً عربياً !

وقد استمر المجلس ساعات طويلة ، ومال الحديث فيه على من يتلقى العربية اليوم على أبناء باريز ، من أمثال الإمام اللغوى أبى جُرَيْجَةَ الشيخ مارسيه أصمعى العصر ... وكان مجلساً نادراً ما قمنا منه إلا ونحن كارهون . نتمنى لو أنه يمتد بنا أسبوعاً ... وخرجنا وقد امتلأ وطابنا علماً وفوائد ، هذا طرف منها وإنه (طبق الأصل) بشهادة أستاذنا الجليل الشيخ محمد بهجة البيطار .

على الطنطاوى

من وراء المنظار

بيني وبين كتبي

ضقت بالكتب حتى لأخشى أن ينقلب هذا الضيق قطيعة ليس بعدها صلة. والحق أني حائر في تعليل هذا الضيق الشديد، وأنا الذي ظل الكتاب زماناً مبعث أنسي وبهجتي، فلا أمله إذا قعدت، ولا أدعه إذا خرجت، كأنما كان صار ضرورة كالهواء الذي أتنفسه، فلا تقوم حياتي إلا به؛ أو كأنه على أقل تقدير بعض ملابسي فلا أستطيع أن أبرح منزلي إلا وهو معي، بل كثيراً ما خيل إلى رفاق – كما حدثوني – أني أستغني عن أي شيء ولا أستغني عن الكتاب، وإن لم أفتحه فيما بينهم إلا دقائق معدودات

أيكون مرد هذا الضيق إلى ما تبعثه طول الألفة من السأم؟ أم يكون مرده إلى أن الكتب وقد صارت عندي درساً وملهاة قد شغلتني عن كثير من متع هذه الحياة؟... فأنا أصدف عنها كيلا أنسى نصيبي من الدنيا فأحرم من زينة الله التي أخرج لعباده؟..

ولكنني لا أرتاح إلى هذا التعليل ولا إلى ذلك. ففي نفسي مما ينغّص الكتب إلى نفسي ما هو أعظم خطراً مما ذكرت!... فلقد استحوذ على لبي خيال، لا أدري إن كنت فيه مخطئاً أم مصيباً: وهو أن الكتب على طول صحبتي لها لم تعلمني شيئاً مما ينبغي لي أن أعلمه عن هذه الحياة، ولا يزال هذا الخيال يوسوس إلى أني إن لبثت بعد ذلك بين كتبي، فمصيري أن ينقطع ما بيني وبين هذا الوجود... ولا تحمل أيها القارئ كلامي هذا على المبالغة أو المزاح، فلو شئت لجئتك بألف دليل على أن لي العذر فيما أقول. وحسبك أن الكتب قد بينت لي كثيراً من أصول الفضائل وقواعد الخلق؛ فلما أتيح لي أن أتبين ذلك في سلوك من أخالط من الناس، وجدتني في حيرة مما تقول الكتب، وأنكرت أكثر هؤلاء الناس وأنكروني، ولا شك أنهم رموني بالغفلة والحمق كما رميتهم بالضلال والسفه. وحسبك أن كثيراً من ذوي قرباي ومن خلاني الأدنين، قد سخروا مني أكثر من مرة سخراً كان ينال من نفسي بعض الأحيان، حتى لأهم بالغضب منهم والثورة عليهم؛ فهم يتهمونني بالغفلة إذا جادلتهم في أمر كما أرى ذلك في أعينهم، وكما تفسره لي ابتساماتهم التي يعلقون بها على كلامي إذا خشوا أن يسيئوا إليّ بألفاظهم. وكان مما تزيد تبرمي بهم أنهم يظنون بي الحمق بينما أعتقد أنا وفق ما علمتني الكتب أنهم هم بما يبدون من آراء أكبر الحمق. ولقد يصارحني من يجد نفسه في مأمن من غضبي – إما لكبر سنه، وإما لسمو مكانته عندي – أن عيبي الأساسي هو أني رجل خيال، أو بعبارة أصح رجل كتب لا أدرى شيئاً مما تقوم عليه الحياة بين من يفهمون الحياة، وهو – كما ترى – سب ولكن على صورة «ذوقية» إن جاز اصطناع الذوق في السب، وإلا فما الفرق بين هذا وبين قولهم: إني جاهل غِر مثلاً؟

وأكثر من ذلك لقد كان مرد كثير من أخطائي في معاملة من تربطني بهم صلة العمل الذي أكسب قوتي منه إلى جهلي بطباعهم، أو قل إلى جهلي بمبادئهم. ولطالما سبب لي ذلك كثيراً من العنت... فأنا على حق إذا تدبرت ما تقول الكتب، وأنا على باطل إذا قست ما يصدر عني بأقيستهم. وأنا لا أدري أأسير طوع الكتب فلا أفرغ من الخصام والحرب وإن أرحت ضميري بذلك، أم أسير وفق تعاليمهم فأكسب الهدوء والسلام

وكادت تقل ثقتي بنفسي لما رأيت شبه إجماع ممن أخالط على إنكار مسلكي، حتى لقد وقفت أحياناً أسأل نفسي: أأنا الغر حقاً، أم أنهم هم الأغفال الأغرار؟

لذلك طويت كتبي زمناً ورحت أتعلم مكر الناس لا لأمكر مكرهم، ولكن لآمن منهم فلا يكون سبب كثير من متاعبي. ونظرت من وراء منظاري ورحت أتدبر فزادتني هذه التجربة اعتقاداً بأن الكتب جنت عليّ بقدر ما قدّمت من قواعدها إليّ...

وما لبثت أن رأيت منظاري يقع على كثير مما أصيب فيه الدرس، حتى لقد أصبحت أشبه نفسي بأولئك الفلاسفة الأقدمين الذين لم يأخذوا فلسفتهم من الكتب، وإنما أخذوها من الحياة!

وليت لي مثل بصيرة هؤلاء... إذاً لأفدت من العلم من وراء المنظار ما لن يأتيني من جميع ما في دار كتبنا العظيمة من كتب، ولكن لا ضير أن أنظر وأن أطيل النظر، وأن أدور بمنظاري هنا وهناك في المدينة وفي القرية، في القصر وفي الكوخ، في «الدواوين»، وفي الطرقات والمتاجر والمنتديات ودور اللهو، وفي الحقول وعلى المصاطب وفي الأسواق، وفي غير ذلك جميعاً من نواحي هذا المضطرب الواسع، أو هذا المسرح الهائل الذي تمثل عليه الحياة. ولعل طول النظر وتنوعه يعوض على ما فاتني من العلم فيما تصرم من سني عمري بين أوراقي وكتبي.

«عين»